مدخل

أولا : التعريف بالزجاج :

الزجاج علم من أعلام اللغة العربية الذين ازدهرت بهم محافلها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ومطلع القرن الرابع ، وصفه أكثر من ترجموا له بأنه من أهل الدين والفضل وحسن الاعتقاد وجميل المذهب[1] .

واسمه : إبراهيم بن السري بن سهل ، وكنيته أبو إسحاق ، ويلقب بالزجاج لأنه كان يحترف خراطة الزجاج قبل أن يتعلم النحو ، وهو يقول في ذلك : " كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت المبرد لتعلمه ، وكان لا يعلم مجانا ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها فقال لي : أي شيء صناعتك ؟ ... فقلت : أخرط الزجاج ، وكسبي في كل يوم درهم ودانقان أو درهم ونصف ، وأريد أن تبالغ في تعليمي وأن أعطيك كل يوم درهما ، وأشرط لك أن أعطيك إياه أبدا إلى أن يفرق الموت بيننا استغنيت عن التعليم أو احتجت إليه ، فلزمته وكنت أخدمه في أموره ومع ذلك أعطيه الدرهم ونصحني في ذلك حتى استقللت [2] .

وقد لقب بالزجاج نحوي آخر اسمه أحمد بن بكران بن الحسين وكنيته أبو بكر ، وترجم له ياقوت [3] وغيره ، وقال ياقوت في ترجمته : " كتب عنه علي بن محمد الأزدي في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة " ا.هـ ولا نعلم لهذا العالم أثرا نحويا .

مولد الزجاج ونشأته ووفاته :

ليس لدينا ـ مما كتبه المؤرخون ـ بيان عن المكان الذي ولد فيه الزجاج والبيئة التي قضى فيها أيامه الأولى ، ولا نعرف متى بدأ يتلقى مبادئ القراءة والكتابة ، ولا أين كان ذلك ، وأول ما نعرفه عن نشأته أنه كان في حداثته يتلقى العلم عن ثعلب في بغداد،

---

(١) انظر ترجمته في الفهرست /٩٠ ، ٩١ ، وبغية الوعاة ٤١١/١ ، وإنباه الرواة ١٥٩/١ ، ومعجم الأدباء ١٣٠/١ ، ووفيات الأعيان ٣١/١-٣٣ .

(٢) بغية الوعاة وإنباه الرواة ومعجم الأدباء كما سبق ونزهة الألباء /٢٤٤ .

(٣) معجم الأدباء ٢٣٦/٢ .

ويبدو أنه قضى ما بعد ذلك من عمره كله في بغداد باستثناء فترة وجيزة قضاها بين بني مارقة معلما لأولادهم ، وكانوا يسكنون قريبا من نهر الصراة بالعراق، وقد أفاد ياقوت [1] أنه كان ينزل بالجانب الغربي من بغداد بالموضع المعروف بالدويرة.

ويمكن التعرف على سنة مولده بالتحقق من سنة وفاته وسنه عند الوفاة ، وفي السنة التي توفي فيها أقوال أشهرها أنها سنة ٣١١هـ أو سنة ٣١٦هـ ، وفي سنه عند الوفاة قولان : أولهما : أنه توفي وقد أناف على الثمانين [2] ، والثاني : ما روي من أنه لما حضرته الوفاة سئل عن سنه فعقد لهم سبعين [3] .

ونحن نرجح أنه توفي سنة ٣١١هـ وقد أناف على الثمانين ، وهذا يقتضي أن مولده كان بالتقريب سنة ٢٣٠هـ ، ويدعونا إلى هذا الترجيح تلك الحادثة التي رواها القفطي وغيره [4] : لما قتل المتوكل بـ(سر من رأى) رحل المبرد إلى بغداد فقدم بلدا لا عهد له بأهله فاختل وأدركته الحاجة فتوخى شهود صلاة الجماعة فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له القول ، فلم يكن عند من حضره علم ، فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر يوهم بذلك أنه قد سئل فصارت حوله حلقة عظيمة ، فتشوف أحمد بن يحيى ثعلب إلى الحلقة ، وكان كثيرا ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوي النظر فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم فإذا أبصر بهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يفاتشهم [5] فإذا انقطعوا عن الجواب انفض الناس عنهم فلما نظر ثعلب إلى من حول أبي العباس أمر إبراهيم بن السري الزجاج وابن الخياط ـ وقيل ابن الحائك ـ بالنهوض وقال لهما : فضا حلقة هذا الرجل ، ونهض معهما من حضر من أصحابه ، فلما صاروا بين يديه قال له إبراهيم بن السري : أتأذن ـ أعزك الله ـ في المفاتشة ؟ فقال له المبرد : سل عما أحببت ، فسأله عن مسألة فأجابه بجواب أقنعه ... الخ ما روي ، وفيها أن الزجاج ناقش المبرد في أربع عشرة مسألة .

---

(١) المصدر السابق ١٤٧/١ .

(٢) إنباه الرواة ١٦٣/١ ، ووفيات الأعيان ٣٢/١ ، وطبقات الزبيدي /١٢٢ .

(٣) بغية الوعاة ٤١٣/١ .

(٤) إنباه الرواة ٢٤٩/٣ ، ٢٥٠ ، وطبقات الزبيدي /١١٨ ، ١١٩ .

(٥) في اللسان (فتش) : الفتش والتفتيش : الطلب والبحث ، وفتشت الشيء فتشا وفتشته تفتيشا مثله.

فهذه الحادثة تفيد أن الزجاج عندما التقى بالمبرد في بغداد كان ناضج الفكر قادرا على الجدل والمناظرة ، ولذلك يستبعد القول بأن عمره كان سبعين عاما عند وفاته مع كونه توفي سنة ٣١١هـ أو سنة ٣١٦هـ ؛ إذ مقتضى ذلك أن مولده كان سنة ٢٤١هـ أو سنة ٢٤٦هـ ، وهذا معناه أنه كان عند قدوم المبرد إلى بغداد ـ بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ ـ طفلا لا يتصور أنه يتلقى عن ثعلب فضلا عن أن يوجه لمناظرة المبرد وفض حلقته ، فإذا ثبت أنه توفي وقد أناف على الثمانين فمعنى ذلك أنه ولد بالتقريب إما سنة ٢٣٠هـ وإما سنة ٢٣٥هـ ، والتاريخ الأول أقرب لجو تلك الحادثة وملابساتها إذ يكون سنه عند قدوم المبرد إلى بغداد سبعة عشر من الأعوام أو ما يزيد قليلا ، ويمكننا بعد هذا الاكتفاء بالقول بأنه توفي سنة ٣١١هـ كما اكتفى به ياقوت [١] والسيوطي [٢] ؛ لأن الزيادة على الثمانين تتحقق به فلا حاجة إلى القول بغيره، وقد ذكر كل من أبي الفداء[٣] وابن الأثير [٤] وفاة الزجاج ضمن حوادث تلك السنة ، وكانت وفاته في جمادى الآخرة يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من الشهر [٥] .

صفاته وأخلاقه :

حرص كثير من العلماء ـ كما ذكرنا ـ على وصف الزجاج بحسن العقيدة وجمال المذهب ، ولم يشذ عن ذلك إلا أبو حيان [٦] الذي وصفه بأنه معتزلي ، وهو زعم خاطئ ؛ فقد رأيت في كتابه (معاني القرآن) شواهد كثيرة تشهد بقوة إيمانه وثبات عقيدته وأخذه بمذهب أهل السنة ورفضه لما سواه ، ومن ذلك ما قاله عند توجيه قوله تعالى : ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [٧] فقد قال [٨] : " أعلم عز وجل أنه يدرك الأبصار ، وفي هذا الإعلام دليل أن خلقه لا يدركون الأبصار ، أي : لا يعرفون كيف حقيقة البصر ، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر بعينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه ، فأعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه فكيف به عز وجل ؟ ... فالأبصار لا تحيط به ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [٩]، فأما ما جاء من الأخبار في الرؤية وصح عن رسول الله فغير مدفوع ، وليس في هذه الآية دليل على دفعه ؛ لأن معنى هذه الآية معنى إدراك الشيء والإحاطة بحقيقته ، وهذا

(١) معجم الأدباء ١٣٠/١ . (٢) بغية الوعاة ٤١٣/١ . (٣) البداية والنهاية ١٤٩/١١ .
(٤) الكامل ١٧٦/٦ . (٥) إنباه الرواة ١٦٣/١ . (٦) انظر البحر المحيط ٤٧٧/٥ .
(٧) الأنعام /١٠٣ . (٨) معانيه ٣٠٦/٢ . (٩) الأنعام /١٠٣ .

مذهب أهل السنة والعلم والحديث " ، وجاء أيضا في توجيهه لقوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (١) " الحسنى : الجنة ، و(زيادة) في التفسير النظر إلى وجه الله جل وعز ، ويجوز أن يكون الزيادة تضعيف الحسنات ... والقول في النظر إلى وجه الله كثير في التفسير ، وهو مروي بالأسانيد الصحاح لا يشك في ذلك " (٢) .

وقد تناقل المؤرخون أن آخر ما تلفظ به الزجاج وهو على فراش الموت : " اللهم احشرني على مذهب أحمد بن حنبل " (٣) ، وهذا يدل على اعتزازه بهذا الإمام .

ومن صفات الزجاج الواضحة في (معاني القرآن) توقيره للقرآن الكريم ، فهو يرى به أن يجوز فيه كل ما يجوز في الكلام من أوجه الإعراب، وملاك ذلك عنده أنه "لا يتخير لكتاب الله عز وجل إلا اللفظ الأفضل والأجزل " (٤) ، وكثيرا ما نهى عن القراءة بأوجه سائغة في اللغة إلا بعد التثبت من ورودها في القراءة لأن القراءة سنة متبعة .

ومنها حرصه على تنبيه القارئ والدارس إلى الفوائد الأخروية التي تثقل ميزان الحسنات وتبلغ المؤمن رفيع الدرجات ، ومن شواهد ذلك قوله عن الدعاء الوارد في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (٥) : " روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عز وجل قال في كل فصل من هذا الدعاء : (فعلت) أي استجبت ، فهو من الدعاء الذي ينبغي أن يحفظ وأن يدعى به كثيرا " (٦) ، وقوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٧) : " روي عن ابن عمر أنه اشترى جارية كان هويَها ، فلما ملكها أعتقها ولم يصب منها ، فقيل له : أعتقتها بعد أن كنت هويتها ولم تصب منها ؟ فتلا هذه الآية : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وفعل ابن عمر هذا ينبغي أن يقتدي به الناس في أن لا يضنوا بجليل ما يملكونه في التقرب به إلى الله تعالى " (٨) ، وهذا وغيره يدل على استقامته في نفسه وإنابته وإيثاره الآخرة .

ومن الصفات التي تحمد للزجاج حبه للعلم ، وحكايته مع المبرد التي تقدمت تدل هي وغيرها على شدة حرصه في طلب العلم إذ كان ينفق فيه ضعف ما كان يحتجز

(١) يونس /٢٦ . (٢) معانيه ١٥/٣ . (٣) انظر معجم الأدباء ١٣٠/١، وبغية الوعاة ٤١٣/١.
(٤) معانيه ٨/١ . (٥) البقرة /٢٨٦. (٦) معانيه ٤٥٢/١.
(٧) آل عمران /٩٢. (٨) معانيه ٤٥٢/١.

لقوته وعيشه ، وهو يفسر به دعوة الله ورسوله في قوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [1] فيقول : " أي : لما يكون سببا للحياة وهو العلم " [2] .

ومنها الاعتراف بالفضل لأهله ، ولهذا ترك حلقة ثعلب ولزم حلقة المبرد بعد أن تبين له فضل المبرد وسعة علمه ، وهو في المعاني يشيد بالسلف ويعترف بفضلهم ويصفهم بأنهم القدوة [3] ويعتمد كثيرا على أقوالهم في التفسير والتأويل .

جهوده العلمية ومكانته :

الزجاج شخصية علمية لها وزنها ومكانتها في مجال اللغة والنحو وغيرهما من علوم العربية ، وهو أستاذ لنخبة ممتازة من علماء العربية الذين حملوا لواءها ووضعوا لبنات كثيرة في صرحها الشامخ ، وهو قبل ذلك وبعده صاحب المؤلفات الجيدة التي أشاد بفضلها العلماء .

ويستفاد من الروايات أنه بدأ دراسته النحوية بدراسة النحو الكوفي في حلقة ثعلب، واجتهد في هذه الدراسة حتى أصبح جديرا بأن يختاره شيخه لمناظرة منافسه المبرد ، وقد سبق أن ذكرنا أنه لما ذهب لمناظرة المبرد كان قد أتم السابعة عشرة أو جاوزها بقليل ، وذلك يعني أن نضجه العلمي كان مبكرا .

ثم كان التقاء الزجاج بالمبرد عندما ذهب لفض حلقته بإيعاز من شيخه ثعلب ، فلما لقي عنده علما وفضلا فارق مجلس ثعلب وتتلمذ على يديه ، وظل ملازما له حتى برع من بين أصحابه وانتهت إليه رئاسة النحويين البصريين بعد وفاته ، وسبقت تلك الرئاسة إرهاصات تشير إلى وقوعها منها أن المبرد كان يراه أهلا للتدريس والتصدر ، فلما طلب منه معلم لأبناء بعض بني مارقة أسماه لهم وأحاله عليهم [4] ، وكذلك عندما طلب منه مؤدب للقاسم قصر معرفته على الزجاج [5] ، وعندما طلب المعتضد من يفسر كتاب (جامع النطق) قال المبرد:"إنه كتاب طويل يحتاج إلى تعب وشغل ... وإن دفعتموه إلى صاحبي إبراهيم بن السري رجوت أن يفي بذلك " [6] .

---

(١) الأنفال /٢٤ . (٢) معاني الزجاج٢/٤٥٢. (٣) المصدر نفسه ١٤٣/٢ .
(٤) إنباه الرواة١٦٣/١ومعجم الأدباء ١٣١/١. (٥) انظر إنباه الرواة١٧٠/١ومعجم الأدباء ١٣٢/١.
(٦) الفهرست /٩٠ ، ومعجم الأدباء ١٤٩/١ .

وكان المبرد لا يقرئ أحدا كتاب سيبويه حتى يقرأه على الزجاج أولا [١] ، وعندما قصد مبرمان ابن كيسان ليقرأ عليه الكتاب امتنع وقال له : اذهب به إلى أهله يعني الزجاج [٢] ، وذلك وغيره يدل على تمكن الزجاج من الكتاب وأنه أتقنه ووعاه.

وقد اعترضه أبو علي [٣] في حكايته عن سيبويه قولين في اشتقاق لفظ الجلالة ، ووصف ما حكاه بأنه سهو وغلط ، ورد عليه ابن خالويه بأنه قد صح القولان عن سيبويه ، ولا ينكر أن تكون الحكاية قد ثبتت عند الزجاج برواية له عن سيبويه من غير جهة كتابه، فلا يكون حينئذ سهوا وغلطا ، وتبين أن سيبويه ذكر الاشتقاقين في الكتاب [٤] ، وذلك يدل على تمكن الزجاج منه وأن أبا علي كان في بعض نقده للزجاج متحاملا عليه .

وكما تتلمذ الزجاج على كتاب سيبويه تتلمذ على مؤلفات غيره من المتقدمين كالأخفش وقطرب وأبي عبيدة والفراء ، ولم يقتصر علمه على الجانب اللغوي والنحوي بل كان على قدم في المعارف الدينية ، وفي معانيه ما يشهد بتضلعه من علم الفقه [٥] وأنه شدا الكثير مما يشمله علم التفسير ، وهو يذكر في المعاني أقوالا لابن عباس وابن مسعود والشعبي وغيرهم من مفسري الصحابة والتابعين ، وكلامه في توجيه قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [٦] يوحي بسعة اطلاعه على ما تقدمه من مؤلفات العلماء في تفسير القرآن .

وقد روي عن الزجاج شعر قليل [٧] وهذا يدل على أنه كانت لديه ملكة نظمه ، وقد قويت هذه الملكة بما كان عنده من بصر بالعروض [٨] ورواية للأشعار والأخبار .

شيوخه :

المشهور عند الباحثين منهم شيخان هما ثعلب والمبرد .

(أ) أما ثعلب فهو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار مولى بني شيبان ، ولد ببغداد سنة ٢٠٠هـ وكانت له رئاسة الكوفيين من طبقته ، وله مؤلفات كثيرة منها :

---

(١) طبقات الزبيدي /١١٩ ، وإنباه الرواة ٢٥٠/٣ .
(٢) طبقات الزبيدي /١٧١ . (٣) انظر المسألة الأولى في الإغفال ٣٨/١-٧٢ .
(٤) انظر فهارس كتاب سيبويه ودراسة له /١٤ ، ١٥ .
(٥) انظر معانيه ٢٩٢/١-٢٩٤ ، ٢٩٦-٢٩٩ ، ٢٥/٢ ، ٥٨ ، ١٠٦ ، ٤٥٨-٤٦٠ .
(٦) انظر معانيه ٣٣٦/١ ، ٣٣٧ . (٧) معجم الأدباء ١٤٧/١ ، وإنباه الرواة ١٦٣/١ .
(٨) معانيه ٢٢٥/٢ .

اختلاف النحويين ، وما ينصرف وما لا ينصرف ، والفصيح ، وهو الذي نقده الزجاج فأورد عليه عشرة مآخذ ، ومنها : معاني القرآن ، وإعراب القرآن ، وغريب القرآن، والوقف والابتداء، وكتاب القراءات، توفي ببغداد سنة ٢٩١هـ [١].

(ب) وأما المبرد فهو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، ولد بالبصرة سنة ٢١٠هـ وانتهت إليه رئاسة البصريين ، وكانت بينه وبين ثعلب منافسة أشرنا إليها فيما سبق ، ومن مؤلفاته المقتضب ، وشرح شواهد سيبويه والرد عليه ، وطبقات النحويين البصريين وأخبارهم ، والكامل ، ونسب له السيوطي وابن النديم معاني القرآن وإعراب القرآن ، ونسب له القفطي وابن النديم أيضا احتجاج القراءة ، وكتاب الحروف ، ومعاني القرآن إلى طه ، وكتاب ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن ، توفي ببغداد سنة ٢٨٥هـ [٢] .

هذا ، وقد رأيت في معاني الزجاج ما هو صريح في أن الزجاج تلقى عن إسماعيل ابن إسحاق القاضي المتوفى سنة ٢٨٢هـ كقوله : " هذا سمعته من إسماعيل بن إسحاق القاضي رحمه الله " [٣] ، وقوله : " أخبرني إسماعيل بن إسحاق " [٤]، وجاء في مقدمة كتاب سيبويه رواية عنه يقول فيها : " حدثني القاضي إسماعيل بن إسحاق "[٥]، وكان إسماعيل هذا من أعلام القضاة ببغداد ، واسمه إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد بن درهم الأزدي ، وكنيته أبو إسحاق ، وأصله من البصرة وبها نشأ ، وكان مولده سنة ٢٠٠هـ ، ومن مؤلفاته : كتاب القراءات ، وكتاب أحكام القرآن ، وكتاب معاني القرآن وإعرابه خمسة وعشرون جزءا ، ويذكر أن هذا الكتاب ابتدأه أبو عبيد القاسم بن سلام وبلغ فيه إلى الحج والأنبياء ثم تركه تنفيذا لأمر الإمام أحمد بن حنبل فأخذه إسماعيل وزاد فيه زيادة وانتهى إلى حيث انتهى أبو عبيد [٦] .

---

(١) انظر ترجمته في إنباه الرواة١/١٣٨-١٥١، ومعجم الأدباء ٥/١٠٢-١٤٦ ، وبغية الوعاة ١/٣٩٦-٣٩٨ ، ووفيات الأعيان ١/٨٤-٨٧ .

(٢) انظر ترجمته في بغية الوعاة ١/٢٦٩-٢٧١،وإنباه الرواة ٣/٢٤١-٢٥٣،والفهرست /٨٧ ، ٨٨ .

(٣) معاني الزجاج ١/٩٦ .

(٤) المصدر السابق ١/١٩٧ .

(٥) مقدمة الكتاب ١/٧(هارون) .

(٦) انظر معجم الأدباء ٦/١٢٩ ، وبغية الوعاة ١/٤٤٣ .

تلاميذه :

تلقى العلم على الزجاج طائفة من النابهين أشهرهم :

١ـ **ابن ولاد** : وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد ولاد النحوي التميمي المصري المتوفى سنة ٣٣٢هـ خرج إلى العراق ، وسمع من أبي إسحاق الزجاج وطبقته ، ورجع إلى مصر وأقام بها يفيد ويصنف إلى أن توفي بها ، وكان ممن أتقن الكتاب على الزجاج وفهمه ، وكان أبو إسحاق يسأله عن مسائل فيستنبط لها أجوبة يستفيدها أبو إسحاق منه ، وقد كان أملى كتابا في معاني القرآن وتوفي ولم يخرج منه إلا بعض سورة البقرة [١] .

٢ـ **الزجاجي** : وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الملقب بالزجاجي لملازمته للزجاج ، وهو وأبو علي من أشهر تلاميذ الزجاج ، ولذا اقتصر على ذكرهما بعض المؤرخين كأبي الفداء [٢] وابن خلكان [٣] ، قدم بغداد فقرأ على الزجاج ، وسمع أيضا من ابن السراج والأخفش ، وسكن دمشق وانتفع الناس بعلمه ، وله مؤلفات أشهرها كتاب الجمل والأمالي الصغرى والوسطى والكبرى ، توفي سنة ٣٣٧هـ وقيل سنة ٣٣٩ هـ وقيل سنة ٣٤٠هـ [٤] .

٣ـ **ابن النحاس** : وهو أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحاس النحوي المصري ، رحل إلى العراق وسمع من الزجاج وأخذ عنه النحو ، كما تلقى عن الأخفش الصغير وتفطويه وابن الأنباري وغيرهم ، وله مصنفات منها : إعراب القرآن ، روى فيه كثيرا عن الزجاج ، وينسب إليه أيضا كتاب (معاني القرآن) ، قال القفطي : " وهما كتابان جليلان أغنيا عما صنف قبلهما في معناهما " ، وذكر له ابن خلكان كتاب تفسير القرآن الكريم ، ومن مؤلفاته أيضا : كتاب المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين ، توفي بمصر سنة ٣٣٧هـ وقيل سنة ٣٣٨هـ [٥] .

٤ـ **ميرمان** : وهو أبو بكر محمد بن علي بن إسحاق العسكري ، سمع من المبرد وأكثر من الأخذ عن الزجاج وكان إماما في النحو قيّما به ، ومن مؤلفاته : شواهد سيبويه ،

(١) إنباه الرواة ٩٩/١ ، وبغية الوعاة ٣٨٦/١ .
(٢) البداية والنهاية ٤٩/١١ .
(٣) وفيات الأعيان ٣٣/١ .
(٤) إنباه الرواة ١٦٠/٢ وبغية الوعاة ٣٦٢/١ ونزهة الألباء /٣٠٦ ووفيات الأعيان ٣١٧/٢ .
(٥) إنباه الرواة١٠١/١ وطبقات الزبيدي/٢٣٩.

وشرح كتاب سيبويه ولم يتم، وشرح كتاب الأخفش، توفي سنة ٣٤٥هـ [١] .

٥ـ **أبو علي الفارسي** : وهو الحسن بن أحمد بن عبد الغفار ، ورد بغداد فأخذ النحو عن الزجاج وغيره ، ثم طار صيته في الأقطار الإسلامية ورفع من شأن المذهب البصري فاتصل بملوكها ، ونال الزلفى عند سيف الدولة الحمداني ، ثم عند عضد الدولة البويهي ، وكان ذا شخصية مستقلة في تناوله للنحو مع كونه يصرح في مؤلفاته بانتمائه إلى البصريين ، وله مصنفات عديدة أهمها : كتاب الحجة في علل القراءات السبع ، وكتاب الإيضاح الذي شرحه الشيخ عبد القاهر الجرجاني في (المقتصد) ، والمسائل الحلبيات ، والمسائل البغداديات ، والمسائل الشيرازيات ، والإغفال ، والتذكرة ، والتكملة ، وقد توفي بعد حياة حافلة بالدراسة والتأليف ببغداد سنة ٣٧٧هـ عن نيف وتسعين سنة.

٦ـ **الرماني** : وهو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرماني النحوي المتكلم ، ولد ببغداد سنة ٢٩٦هـ ونشأ بالرمان بمدينة واسط ثم وفد إلى بغداد فأخذ عنه الزجاج وابن دريد وابن السراج وغيرهم ، كان إماما في علم العربية مع ميل إلى الفلسفة لاعتزاله ، وظهر ذلك في دراسته وتأليفه ، وكان أهل عصره يقولون : النحويون في زماننا ثلاثة : واحد لا يفهم كلامه وهو الرماني ، وواحد يفهم بعض كلامه وهو أبو علي الفارسي ، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ وهو السيرافي ، ومن مؤلفات الرماني : شرح كتاب سيبويه ، وشرح مقتضب المبرد ، وشرح أصول ابن السراج ، وتفسير القرآن المجيد ، وإعجاز القرآن ، والألفات في القرآن ، وشرح معاني الزجاج ، توفي سنة ٣٨٢هـ وقيل سنة ٣٨٤هـ [٢] .

هل كان ابن السراج من تلاميذ الزجاج ؟

عد بعض الباحثين المعاصرين [٣] أبا بكر بن السراج من تلاميذ الزجاج ، وهذا خطأ منه ، ولم يصرح أحد من المؤرخين بذلك ولا أشار إليه ، فابن السراج ليس من تلاميذ الزجاج ، بل هو من طبقته ونظيره في التلقي عن المبرد والتدريس لأبي علي الفارسي،

(١) بغية الوعاة ١/١٧٥ والوفيات ١/٨٢ ومعجم الأدباء ١٨/٢٥٤-٢٥٧ .
(٢) بغية الوعاة ٢/١٨٠ ومعجم الأدباء ١٤/٧٣ ووفيات الأعيان ٢/٤٦١ .
(٣) انظر مقدمة (ما ينصرف وما لا ينصرف) ص١٨ تحقيق هدى قراعة .

ولعل الذي أوقع الباحث في هذ الخطأ ما ذكره في ترجمته لابن السراج من أنه سئل عن مسألة بحضرة الزجاج فأخطأ في جوابها فوبخه الزجاج وقال : مثلك يخطئ في هذه المسألة ؟ وهذا الذي ذكره الباحث صحيح أورده ابن النديم [1] والسيوطي [2] ، وسياق الحكاية التي ورد فيها ذلك يشعر بأن الزجاج وابن السراج كانا ندين ونظيرين وصديقين تجمعهما التلمذة على شيخهما المبرد والتنافس ، وقد وقعت هذه الحادثة بعد انقطاع ابن السراج عن دراسة النحو واشتغاله بالموسيقى ، وكانت في مجلس ود يجمع الصديقين ، فقد جاء فيما أثبته ابن النديم قول ابن درستويه : " ورأيت ابن السراج يوما وقد حضر عند الزجاج مسلما عليه بعد موت المبرد فسأل رجل الزجاج عن مسألة فقال لابن السراج : أجبه يا أبا بكر فأجابه فأخطأ فانتهره الزجاج ، وجاء فيما أثبته هو والسيوطي أن الزجاج قال له : والله لو كنت في منزلي لضربتك ولكن المجلس لا يحتمل ذلك ، وما زلنا نشبهك في الذكاء بالحسن بن رجاء ، فقال له ابن السراج : قد ضربتني يا أبا إسحاق وكان علم الموسيقى قد شغلني . على أنا وجدنا في كلام ابن السراج مما نقله أبو علي عنه نقولا عن الزجاج ، وصدر ابن السراج بعضها بقوله :" قال بعض أصحابنا " ، ولو كان الزجاج شيخا له لما عبر بذلك .

مؤلفات الزجاج :

أتحف الزجاج المكتبة العربية بمؤلفات عديدة في اللغة والنحو وسائر علوم العربية، ومن هذه المؤلفات ما هو موجود بين أيدينا ، ومنها ما فقد ولم يعثر عليه إلا أنه ظل مسجلا في كتب التراجم وغيرها [3] ، ومن مؤلفاته الموجودة بين أيدينا :

١ـ كتاب (معاني القرآن) وهو أشهر مؤلفاته ، وسيأتي التعريف به .

٢ـ كتاب (ما ينصرف وما لا ينصرف) ، وهو محقق مطبوع ، وسيأتي التعريف به.

٣ـ كتاب (فعلت وأفعلت) وهو مطبوع .

٤ـ كتاب (خلق الإنسان) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

٥ـ (المؤاخذات على فصيح ثعلب) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، ونقله ياقوت

---

(١) الفهرست /٩٢ . (٢) بغية الوعاة ١/١٠٩ ، ١١٠ .

(٣) انظر الفهرست /٩١ ومعجم الأدباء ١/١٥١ وإنباه الرواة ١/١٦٥ ووفيات الأعيان ١/٣٢ وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢/١٧١ والمغني ١/١٢٠ ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/٧ والخزانة١/٢٥ ، ٢٦ .

في معجم الأدباء [1] .

هذا ، وذكر بروكلمان [2] أن للزجاج كتابا يسمى (الإبانة والتفهيم عن معاني بسم الله الرحمن الرحيم) ، وذكر أنه موجود في مكتبة جوتا برقم ٧٢٧ ، وذكر أيضا صاحب كتاب (أبو علي الفارسي) أن أبا علي روى ذلك الكتاب عن الزجاج [3] .

ثانيا : التعريف بكتاب (معاني القرآن) للزجاج :

يعد كتاب (معاني القرآن) أهم كتب الزجاج وأكثرها فائدة ، ولهذا اقتصر على ذكره دون سائر كتب الزجاج بعض المؤرخين كأبي الفداء [4] وابن الأثير [5] ، ويرى بعض الباحثين [6] أن اسمه الكامل هو (معاني القرآن وإعرابه) ، وفي تقديم الزجاج لهذا الكتاب ما يفيد أنه في (إعراب القرآن ومعانيه) [7] ، ورأيت في كلام الزجاج ما يؤيد ذلك كما سيأتي في بيان دواعي تأليفه .

وهو صورة دقيقة لمذهب الزجاج النحوي وثقافته العربية ، وتعبير عن مدرسة البصرة النحوية وترسيخ لمصطلحاتها وأصولها وحديث عن أئمتها السابقين ، ونقاش ورد في كثير من الأحيان لآراء أئمة الكوفة [8] .

ويستفاد مما أورده ياقوت [9] أن الزجاج استغرق في تأليفه نحو ستة عشر عاما ، وأنه فرغ من تأليفه قبل وفاته بنحو عشرة أعوام ، فقد بدأ بإملائه في صفر سنة ٢٨٥هـ وأتمه في ربيع الأول سنة ٣٠١هـ ، وهذا التاريخ يرشدنا إلى الحقائق التالية :

١ـ أن هذا الكتاب مؤلف بعد مضي أكثر من قرن على بداية التأليف في معاني القرآن، إذ أن أقدم من نسبت إليه كتب الطبقات هذا النوع من التأليف هو أبو جعفر الرؤاسي الذي كان أستاذا للكسائي المتوفى سنة ١٨٩هـ في عهد الخليفة الرشيد (ت سنة ١٩٣هـ) ، كذلك نسبت تلك الكتب ليونس بن حبيب البصري

---

(١) انظر ج١ ص١٣٩-١٤٣ . (٢) تاريخ الأدب العربي ١٧٢/٢ .

(٣) أبو علي الفارسي/٩٢، ١١٨، ١١٩. (٤) البداية والنهاية ١٤٨/١١ . (٥) الكامل ١٧٦/٦ .

(٦) هو محقق المعاني، انظر ص ج من المقدمة بالجزء الأول من معاني القرآن وإعرابه للزجاج .

(٧) انظر الورقة الأولى بالنسخة ٤٦٧ تفسير طلعت ومعاني الزجاج المطبوع ١/١ .

(٨) انظر النحو وكتب التفسير ٢٥٠/١ (رسالة) . (٩) معجم الأدباء ١٥١/١ .

أنه ألف معاني القرآن وقد كان معاصرا للرؤاسي وتوفي بالبصرة سنة ١٨٢هـ .

٢ـ أنه ألف عندما كانت العصبية بين مدرستي البصرة والكوفة آخذة في الاضمحلال، وبعد أن استقرت المدرسة البصرية ووضحت معالمها وتمكنت مصطلحاتها وارتفع شأن أئمتها وتعددت مؤلفاتهم ، وهو يعد بحق مرآة صادقة للفترة التي ألف فيها.

٣ـ أنه ألف في أواخر حياة الزجاج في وقت كان فيه إماما للمدرسة البصرية بعد وفاة أستاذه المبرد سنة ٢٨٥هـ وتصدر فيه للتدريس لأبي علي الفارسي وأضرابه ، وقد كان لذلك أثره البين في الإجادة والإتقان لا سيما إذا تذكرنا أن حياة الزجاج امتدت في أزهى عصور الازدهار العلمي الحافلة بالإنتاج الجيد، وأنه سبق بالتأليف في هذا المجال من علماء مدرستي البصرة والكوفة.

٤ـ أنه ألف في وقت ظهرت فيه الحاجة الملحة إلى تحديد القراءات القرآنية وتمييزها وضبط مسائلها وتحري القول فيها ، واتجه العلماء إلى تحقيق ذلك كما فعل معاصره شيخ القراء ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤هـ [١] ، وقد ألف في ذلك كتاب السبعة وكتابا آخر في القراءات الشاذة ، والزجاج ـ كما يبدو ـ سار في هذا الاتجاه كما سار فيه الفراء وغيره قبله ، فجاء كتابه معنيا بذكر القراءات والاحتجاج لها وإن لم يكن معنيًّا باستقصائها .

دواعي تأليفه :

لم يذكر الزجاج في الكلمة القصيرة التي قدم بها الكتاب شيئا من الأسباب التي دعته إلى تأليفه ، لكنه أفاد في تلك الكلمة وفي بعض كلامه أن مقصده الأول هو إعراب القرآن وخدمته من الجانب اللغوي والنحوي ، ويلي ذلك من المقاصد التفسير وبيان المعاني ، فهو يقول : " وإنما نذكر مع الإعراب المعنى والتفسير لأن كتاب الله ينبغي أن يتبين ، ألا ترى أن الله يقول : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [٢] فحضضنا على التدبر والنظر ، ولكنه لا ينبغي لأحد أن يتكلم إلا على مذهب اللغة أو ما يوافق ما نقله أهل العلم " [٣] ، ويقول في موضع آخر : " وهذا الباب فيه صعوبة ، إلا أن كتابنا هذا يتضمن شرح الإعراب والمعاني ، فلا بد من استقصائها على حسب ما يعلم " [٤] .

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٥/٦٥-٧٣ . (٢) النساء /٨٢ والقتال /٢٤ .
(٣) معانيه ١/١٦١ ، ١٦٢ . (٤) معانيه ١/١٨٦ .

ويلحظ أن المقصود بالإعراب عند الزجاج معناه الواسع ، فهو يشمل كل ما يحتاج إليه النص من بيان لغوي ونحوي ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى الغوص في مسائل الخلاف النحوية وتقرير أدلتها ، ويدخل في ذلك أيضا توجيه القراءات والاحتجاج لها والموقف منها تأييداً ونقداً [١] .

ويتبين لمطالع الكتاب والمتأمل فيه أن الزجاج قصد بتأليفه أيضا إلى أمرين :

أولهما : نشر المذهب البصري وبسط أصوله وقواعده، مع الاجتهاد والنظر المستقل .

والآخر : تعقب المذهب الكوفي وبيان أوجه القصور والخطأ فيه ، لا سيما أنه درس هذا المذهب على يد أستاذه ثعلب وعرف ما فيه من ثغرات .

ولم يقتصر على ما تقدم من الأهداف التي تخدم علم العربية وإنما قصد أيضا إلى الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه وتثبيت دعائمه ، فهو يؤكد كثيرا أن كتابه الأول وهو القرآن الكريم وحي من عند الله تعالى ، وأن ما ورد فيه من أخبار السابقين يصدق ذلك ويؤكده كما يؤكد نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميا لم يطلع على كتب السابقين [٢] ، وتقدم حديثنا عن توقير الزجاج للقرآن وحرصه على تنبيه القارئ إلى الفوائد الأخروية التي تثقل ميزان الحسنات وتبلغ بالمرء رفيع الدرجات [٣] ، ومن مظاهر حرصه على ذلك في نفسه اختياره للقراءة بإثبات الياء في قوله تعالى : ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ**﴾ [٤] ؛ لأنه ـ كما يقول ـ أقوى في العربية وأجزل في اللفظ وأتم للثواب ؛ لأن القارئ يجازى على كل ما يقرؤه في كتاب الله بكل حرف حسنة [٥] .

وصف نسخ المعاني وبيان أهميته :

ظل هذا الكتاب في قائمة المخطوطات حتى عام ١٩٧٢م عندما اتجه الدكتور/ عبد الجليل عبده شلبي لتحقيقه وطبعه فأخرج منه جزءين :

الجزء الأول: يبدأ بالفاتحة وينتهي بآخر سورة آل عمران،وقد تم طبعه سنة ١٩٧٣م.

والثاني : يبدأ بأول سورة النساء وينتهي بآخر سورة التوبة ، وتم طبعه سنة ١٩٧٤م.

ثم أخرجه بعد ذلك كاملا حيث طبع ببيروت عام ١٩٨٨م بمطابع عالم الكتب .

---

(١) النحو وكتب التفسير ٢٥٣/١ (رسالة) .

(٢) انظر المعاني ٧٦/١ ، ١٢٢، ١٥٤، ٣١٨، ٣٣٧، ٤٢٧، ٨٧/٢، ١٧٩.

(٣) انظر ما تقدم (٤) البقرة /٤٠. (٥) معانيه ٨٩/١ .

وفي دار الكتب المصرية منه نسختان مخطوطتان :

أولاهما : برقم ٤٦٧ تفسير طلعت، وتقع في ٢٥٠ ورقة تبدأ بسورة الفاتحة وتنتهي بتوجيه قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾في سورة الأنعام[1].

والثانية : برقم ١١١ تفسير م وتقع في ٢١٢ ورقة وتبدأ بأول سورة النساء وتنتهي بتوجيه قوله تعالى: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ في سورة هود[2].

وفي معهد إحياء المخطوطات بمصر سبع نسخ مخطوطة مصورة بالميكروفيلم ، وهي النسخ من ٢٤٦ إلى ٢٥٢ تفسير ، وتشمل القرآن الكريم كله بمجموعها .

ويبدو أن الزجاج أملى هذا الكتاب ودرسه غير مرة ، ويبرز هذا الاحتمال أن بعض نسخه ـ كما قال محققه ـ يختلف عن سائرها بتقديم بعض العناصر أو الآيات وتغيير كثير من الألفاظ والعبارة ، ويبدو ـ كما قال أيضا ـ أن الكتاب تدوول كثيرا، ويدل على ذلك اختلاف كتابة النسخ التي وصلت إلينا ، ولقد كان مثار نشاط فكري وعلمي منذ تأليفه ، فكان الزجاج يدرسه لتلاميذه ومنهم ابو علي الفارسي الذي استوعبه ثم ألف كتابا في الاستدراك عليه وهو الإغفال أو المسائل المصلحة في معاني الزجاج ، ورد ابن خالويه نقد أبي علي في كتاب ألفه سماه : (الهاذور) ، ودفع ذلك أبا علي إلى تأليف نقض الهاذور يرد فيه على ابن خالويه ، ولم يقتصر تأثير معاني الزجاج على ذلك بل كان له أثر ظاهر ملموس في كتب التفسير وإعراب القرآن التي جاءت بعد عصر الزجاج وأبي علي .

ثالثا : التعريف بكتاب (ما ينصرف وما لا ينصرف) للزجاج :

الباعث على تأليفه ، وما يشتمل عليه من أبواب :

الذي يبدو من تقديم الزجاج لكتابه هذا أن باعثه على تأليفه هو شرح قول سيبويه : " التنوين علامة الأمكن عندهم والأخف عليهم " ، فهو يقول بعد أن ذكر عبارة سيبويه تلك: " وهذا موضع من الكتاب في شرحه شرح أصل المعرب كله، وذلك أن في قوله :

---

(١) آية ١٤ .

(٢) آية ٩٤ .

" علامة للأمكن عندهم " فائدة ليست في قوله : " علامة للمتمكن " ... إلى أن يقول : " إلا أن بعض المتمكنة أشد تمكنا من بعض ، فأعلمك أن التنوين علامة لأمكن الأشياء عندهم ، وقد يكون متمكن لا تنوين فيه فيترك التنوين في المتمكن الذي هو ثقيل عندهم ، وذلك كل ما لا ينصرف غير منون ليفصل به بين المستوفى التمكن وبين الناقص التمكن " .

ثم يشرع بعد ذلك في تعليل امتناع الخفض فيما لا ينصرف ، ولماذا أبدل من الكسر الفتح ، ثم في بيان ما يدخل الاسم من تفريع يخرجه من أصل التمكن ، ويذكر جهات التفريع على سبيل الإجمال ، ثم يفصل القول فيها في سائر الكتاب .

والكتاب يشتمل على تسعة وثلاثين بابا تغطي أحكام ما لا ينصرف ، إلا أن بعض هذه الأبواب يمكن عدها من قبيل الاستطراد ، وإن كانت لا تخلو من حكم يتعلق بها في باب ما لا ينصرف ، ومنها : باب ذكر الأسماء المبهمة ، وباب الظروف المبهمة ، وباب الألقاب ، وباب الاسمين اللذين ضم أحدهما إلى الآخر فجعلا اسمًا واحدًا ، وباب الحكاية بالتسمية .

نهج الزجاج فيه :

ذكرت محققة كتاب (ما ينصرف وما لا ينصرف) جملة أمور تبين نهجه في ذلك الكتاب تتلخص فيما يلي [1] :

أولا : أنه يورد في كتابه ذلك آراء النحويين في المسألة التي يبحثها مع تيسير وشرح لما غمض من كلامهم ، وإذا أراد تصويب شيء منه تأدب في عرض ذلك التصويب .

ثانيا : أنه كثيرا ما يستحسن بعض الآراء ، ويختار ما يراه صوابا ، فتبدو شخصيته النحوية متميزة ، وذلك حيث يقول مثلاً : "وهذا القول هو الذي أختار" ، أو "كلاهما عندي مذهب" ، أو "فهذا إجماعهم، والذي أراه ..." ، فهو يصدر في اختياره عن اقتناع بالرأي الذي يختاره .

ثالثا : أنه قد ينفرد برأي في المسألة فيعلل لذلك ، كما في مسألة إيجابه منع صرف العلم الثلاثي الساكن الوسط [1] .

رابعا : أن الكتاب تبدو فيه ظاهرة تفصيل المجمل وتصنيفه من خلال طريقة عرض

(١) انظر مقدمة المحققة ص٢٧ ، ٢٨ .

الزجاج لمفردات مسائله وجزئياتها .

خامسا : أن هذا الكتاب تبدو فيه ظاهرة اهتمامه بالاشتقاق ، إذ أورد كلمة الاشتقاق اثنتين وعشرين مرة على الرغم من صغر حجمه ، كما أنه أكثر فيه من شرح الكلمات الغريبة أو المبهمة .

ويمكن أن نضيف إلى ذلك عناية الزجاج بالاستشهاد لمسائل هذا الكتاب ، فقد ورد فيه أربعة وعشرون شاهدا من القرآن الكريم ، وأربعة وسبعون شاهدا من الشعر العربي الفصيح .

ما يؤخذ عليه :

هذا ، ويؤخذ على الزجاج في كتابه هذا أمران :

الأول : أنه في بعض نقوله عن الكتاب لا يذكر نص سيبويه ، وإنما ينقل عن كتاب سيبويه بالمعنى دون النص مع أنه يصدر ذلك بلفظ " قال سيبويه " .

والثاني : أنه أحيانا يكتفي بالنقل عن سيبويه دون تعليق أو شرح أو تعقيب ، وهذا كثير .

وإليك نموذجا يدل على أنه ينقل عن كتاب سيبويه أحيانا بالمعنى دون النص ، فهو يقول : " قال سيبويه : وسألت الخليل عن المران ، فقال : إن سميت رجلا مرانا صرفته ؛ لأن مرانا فُعّال من المرونة ـ وهو اللين ـ فالنون فيه من نفس الكلمة ، ومن بنى (مران) من الشيء المر لم يصرفه في المعرفة وصرفه في النكرة " ، والنص الوارد في الكتاب : " وسألت الخليل عن رجل يسمى (مرّانا) فقال : أصرفه ؛ لأن المرّان إنما سمي للينه ، فهو فُعّال كما يسمى الحمّاض لحموضته ، وإنما المرانة اللين " .

(١) انظر ما لا ينصرف ص٥٠ .